المبحث الأول : مفهوم مقتضى الحال.

توطئة:

يعتبر السياق من القرائن الكبرى التي يستند عليها التحليل الدلالي ، وعلماء الدلالة حين يتحدثون عن السياق يقسمونه إلى نوعين : نوع لغوي يهتم بالسباق واللحاق ،و آخر مقامي لا يمكن إغفاله يراعي ملابسات الكلام ،أطلق عليه العلماء– قديما و حديثا – مصطلحات كثيرة، لعل أقدمها **مقتضى الحال.**

1. تعريف مقتضى الحال :

1.1.التعريف اللغوي:

المقتضى اسم مفعول من اقتضى، واقتضى مشتق من قضى ، وقضى في اللغة لها عدة معان ، منها :

- ✓ **القطع** : قال الزجاج : « قضى في اللغة على ضروب ، كلها يرجع إلى معنى انقطاع الشيء »[1].
- ✓ **إحكام الأمر و إنفاذه** : قال ابن فارس : « القاف و الضاد و الحرف المعتل أصل صحيح يدل على إحكام أمر و إتقانه و إنفاذه لجته »[2].
- ✓ **الحكم و الفصل:** ومنه قوله ﷻ : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: 23].

قال الجوهري : « قضى أي حكم »[3].

---

[1] – الزجاج ،أبو إسحاق ، **معاني القرآن و إعرابه**، ش وتح:عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتاب ،ط1، سنة 1988،ج 2،ص230 .

[2]– ابن فارس، أحمد بن زكريا ، **معجم مقاييس اللغة** ،تح:عبد السلام هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ، ط2، سنة 1972،ج5، ص99.

[3] – الجوهري ، إسماعيل بن حماد ، **الصحاح في اللغة** ،تح:عبد الغفور عطار ،دار العلم للملايين، بيروت ،لبنان ،ط2،سنة 1979،ج6،ص2463.

-**أما الحال:** « فهي اسم يدل على الأوصاف أو الكيفيات المتغيرة أو القابلة للتغير في الشيء الذي تضاف إليه، و حال الإنسان، ما يختص به من أموره المتغيرة الحسية والمعنوية »[1].

2.1. التعريف الاصطلاحي:

"**مقتضى الحال**" مصطلح ، مكون من مركب إضافي يُعرَّف بأنّه:

« ...الاعتبار المعين الذي يستدعي مجيء الكلام على صفة مخصوصة مناسبة للحال ، كالتأكيد في حال الإنكار أو التردد مثلاً»[2].

وقد عرفه " **بدوي طبانة** " بقوله : «.....ويسمى (الاعتبار المناسب) وهو الصورة المخصوصة التي تورد عليها العبارة ، مثلا المدح حال يدعو لإيراد العبارة على صورة الإطناب ، وذكاء المخاطب حال يدعو لإيرادها على صورة الإيجاز. فكل من المدح و الذكاء حال . وكل من الإطناب أو الإيجاز مطابقة للمقتضى. و إيراد الكلام على صورة الإطناب أو الإيجاز مطابقة للمقتضى »[3].

ويشرح ذلك قائلاً : « والحال هو الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما ، وتلك الخصوصية هي مقتضى الحال»[4].

أمّا **أحمد مصطفى المراغي** فيعرفه بأنه :« صورة خاصة ترد في الكلام زائدة على أصل معناه قد اقتضاها الحال و استدعاها المقام»[5].

و أما إذا رجعنا إلى "قاموس اللّسانيات" لـ"**جان ديبوا**" فنجده يشير إلى أنه : « مجموعة الظروف الاجتماعية الممكن أخذها بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين

---

[1] – المعجم الوسيط، ج1 ، ص216

[2] – أحمد مطلوب، **معجم المصطلحات البلاغية** ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ،1987، ج3، ص 243.

[3] – بدوي طبانة، **معجم البلاغة العربية** ، دار المنارة (جدة)، دار الرفاعي للنشر (الرياض)، ط3 ،ص 548.

[4] – المرجع نفسه ، ص84.

5 – أحمد مصطفى المراغي، **علوم البلاغة**، دار إحياء التراث الإسلامي، ط 1، 1992 م،ص36–37.

السلوك الاجتماعي و السلوك اللّغوي... و أحياناً يوسم بالسياق الاجتماعي للاستعمال اللّغوي، و نقول أيضاً "**السياق المقامي**" أو "**سياق المقام**"، و هو المعطيات التي يشترك فيها المرسل و المستقبل حول المقام الثقافي و النفسي، و التجارب المشتركة بينهما والمعارف الخاصة بكلّ منهما»[1].

و عرف معجم المصطلحات اللغوية هذا المصطلح بأنّه:« الخلفية غير اللغوية للكلام (أو النص) و من خلالها يأخذ تمام معناه في الاستعمال و من هذه العناصر: الكلام السابق، الإطار الاجتماعي الذي يتم فيه الكلام، و مستوى العلاقة بين طرفي الكلام اجتماعياً و ثقافياً»[2].

من خلال التعريفات السابقة ، يتبيّن جليا أن مقتضى الحال يرتبط ارتباطا وثيقا بالعناصر الغير لغوية التي تكتنف الحدث الكلامي و تؤثر فيه.

و لما كانت مراعاة هذه الاعتبارات ضرورية لاستكناه المعنى، ألقى العلماء – قديما و حديثا ، وعلى اختلاف مشاربهم – جملة من المصطلحات التي تصف هذه العناصر، فنجد على سبيل المثال : المقام ، بساط الحال ، السياق الاجتماعي ،الماجريات، السياق الخارج عن النص، المناسبة ، سياق الحال....وغيرها.

2.أهم مرادفات مقتضى الحال :

إن المتأمل في التراث العربي الإسلامي، وكذا الدراسات اللغوية الحديثة ، يجد زخما هائلا من المصطلحات التي ترادف أو تتقارب مع مصطلح مقتضى الحال ، لعل أشهرها:

1 – Jean Dubois et autres, **dictionnaire de linguistique** , larousse, paris 1989, (mot contexte) ،p 120.

2 – رمزي منير بلعبكي، **معجم المصطلحات اللغوية**، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1990، مادة (س و ق).

1.2.المقـام:

يطلق أهل البيان والبلاغة مصطلح "**المقام**" على مقتضى الحال، حال الخطاب في ذاته، وحال المخاطَب والمخاطِب. والمقام كما يقرر الدكتور"**تمام حسان**" بأنه: «... الوجه الذي تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال»[1].

ويحاول أن يفرق بينه وبين مقتضى الحال بقوله: « إن مجموع الأشخاص المشاركين في المقال إيجابا أو سلبا ثم العلاقات الاجتماعية والظروف المختلفة في نطاق الزمان والمكان هو ما أسميه(المقام) ، وهو بهذا المعنى يختلف بعض الاختلاف عن فهم الأولين الذين رأوه حالا ثابتة، ثم جعلوا البلاغة مراعاة مقتضى الحال» [2].

ويتفق "**تمام**" مع "**ابن يعقوب المغربي**" بضرورة التفريق بين المصطلحين إذ يقول: « ويختلفان (الحال والمقام) في الاستعمال ، فالمقام يستعمل مضافاً للمقتضيات فيقال مقام التأكيد مثلاً . والحال يستعمل كثيراً مضافاً للمقتضى فيقال حال الإنكار . فإذا توهم في سبب ورود الكلام بخصوصية ما كونه زماناً لذلك الكلام سمي حالاً لتحول الزمان بسرعة ، وإذا توهم فيه كونه محلاً له سمي مقاما»[3].

أي أن المتكلم يؤدَّى الكلام بسمات معيَّنة مناسبة للمقام أو الحال الذي يلقى فيه ذلك الكلام .

2.2.سياق الحال (context of situation):

مصطلح شهير صاغه "**مالينوفسكي**" وهو« يتمثل في الظروف الاجتماعية والبيئة النفسية و الثقافية للمتكلمين أو المشتركين في الكلام»[4].

1- تمام حسان ، **اللغة العربية معناها ومبناها**، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، 1998، ص 337.

2- المرجع نفسه، ص351.

3 – ابن يعقوب المغربي ؛ أحمد بن محمد ، **مواهب الفتاح** ، تحق : خليل إبراهيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،2001،ج 1،ص125.

4 – حلمي خليل، **العربية و علم اللغة البنوي**، ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996 م،ص 135.

إذا فسياق الحال يهتم بدراسة المحيط الذي يقع فيه الكلام ويشمل الظروف المحيطة بالحدث الكلامي لسياق الموقف ، (العصر) نوع القول وصفته ، اللغة أو اللهجة المستعملة ، المتكلم أو الكاتب ، المستمع أو القارئ ، العلاقة بين المرسل والمتلقي من حيث الثقافة ، الجنس ، العمر ، الألفة والطبقة الاجتماعية ، ظروف الجو ، إيماءات أو أي إشارات عضوية[1]، وهذا ما جعل بعض الباحثين يجعلون مفهوم "**المقام**" لدى قدماء البلاغيين يقابل مصطلح "**سياق الحال**" في المدارس اللّسانية الحديثة، يقول"**تمام حسان**" معبرا عن ذلك : «... أجد لفظ المقام أصلح ما أعبر به عمّا أفهمه من المصطلح الحديث "سياق الحال" (**context of situation**) الذي يستعمله اللّسانيون المحدثون»[2].

فسياق الحال يقتضي مراعاة المتكلم لحال السامعين وثقافاتهم و أن يوازن بين ما يقوله وبين ثقافة السامع أو المخاطب وكذلك يتطلب سياق الحال موازنة بين الموقع الاجتماعي للمتحدث وأثره في اختيار اللغة أو الأسلوب.

3.2.القرائن الحالية(قرائن الأحوال) :

وهذا المصطلح أشار إليه الأصوليون، وقد يطلقون عليه أيضا قرائن الأحوال،ويعرفه "**الشاطبي**" بقوله: « معرفة مقاصد الكلام إنّما مداره معرفة مقتضيات الأحوال، حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطب أو المخاطب أو الجميع، إذْ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، و بحسب غير ذلك»[3].

فالقرينة الحالية عموما هي النظر إلى الأحوال والملابسات التي احتفت بالمتكلم الذي صدر عنه الخطاب، أو المخاطَب الذي توجه إليه الخطاب ، أو البيئة والظروف التي احتفت بالخطاب نفسه، أو النظر إلى هذه الأمور مجتمعة.

1- محمود السعران، **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي**، دار الفكر العربي، د ت ط،ص339.

2 – تمام حسان ، المرجع السابق، ص 339.

3 – خالد عبد الرحمن العكك، **أصول التفسير و قواعده**، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1986 م، ص 102.

4.2.شاهد الحال:

وهذا المصطلح استعمله "**ابن جني**" في كتابه "**الخصائص**" في باب مراتب الأشياء، وتنزيلها تقديراً وحكماً، لا زماناً ووقتاً ، وفيه يقول : « ومن ذلك ما أقيم من الأحوال المشاهدة مقام الأفعال الناصبة، نحو قولك إذا رأيت قادماً: "**خير مقدم**" أي: قدمت خير مقدم. فنابت الحال المشاهدة مناب الفعل الناصب. وكذلك قولك للرجل يهوي بالسيف ليضرب به: "**عمراً**" ، وللرامي للهدف إذا أرسل النزع فسمعت صوتاً"**القرطاس والله**"، أي: اضرب عمراً، وأصاب القرطاس»[1].

لقد تنبه "**ابن جني**" إلى أهمية معرفة مقتضى الحال، في تحديد المعاني، فلا يكتفي بتحديد المعنى في العديد من الأحوال بالسماع فقط، بل ينبغي أن يحيط السامع بالظروف التي تحيط بالكلام ...المشاهدة و الحضور[2].

5.2.دلالــة الحـال:

قال الإمام "**ابن تيمية**" متحدثا عن لفظ الإشارة: «... فلابد من دلالة حالية أو لفظية تبين أن المشار إليه غير لفظ الإشارة، فتلك الدلالة لا يحصل المقصود إلا بها وبلفظ الإشارة، كما أن لام التعريف لا يحصل المقصود إلا بها وبالمعهود »[3].

« ويسمى هذا لسان الحال ودلالة الحال ومنه قولهم : سل الأرض من فجر أنهارك وسقى ثمارك وغرس أشجارك فان لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا ....»[4].

6.2.القرينة الحـالية:

مصطلح **القرينة** هو: « أمر يشير إلى المطلوب. وهي إما حالية، أو معنوية، أو لفظية »[1]. و قد عرفه "**التهانوي**" بأنه: « ما نصب للدلالة على المراد»[2].

---

[1] – ابن جني عثمان أبو الفتح، **الخصائص**، ت: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1،ص264.

[2] – عبده الراجحي، **فقه اللغة العربية**، دار النهضة العربية، بيروت، د ت ط، ص 167.

[3] – ابن تيمية ،أحمد بن عبد الحليم ، **مجموع فتاوى**، دار الوفاء للطباعة و النشر،المنصورة،ط 3، 2005م،ج 20، ص 495.

[4] – المرجع نفسه،ج 12 ، ص 405.

و يميز الأصوليين بين ثلاثة أنواع من القرائن هي:

1- القرينة اللفظية 2- القرينة العقلية

3 - **القرينة الحالية:** تنوعت العبارات التي وضحت المقصود بالقرينة الحالية، فقد عرّفها "**الغزالي**" بأنها :« إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق، لا تدخل تحت الحصر و التخمين، يختص بدركها المشاهد لها»[3].

فالقرينة الحالية تتضمن حال المتكلم، وشؤونه ، وأي عمل، أو إشارة يقوم بها، والمقام الذي يقال فيه الكلام.

7.2.سياق الموقف:

لا شك أن « الكلام الحي لا ينفصل عن **الموقف** الذي يكون فيه، و ما يلابس ذلك من حركات باليد و تعبير الوجه...»[4].

فالموقف الذي يكون فيه المتكلم، هو الذي يعين الدلالة، فموقف المدح غير موقف الذم.

8.2.النِّصبة:

وهو مصطلح أشار إليه "**الجاحظ**" و عرفه بأنه : « الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض وفي كل صامت وناطق وجامد ونام ومقيم وظاعن وزائد وناقص فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق فالصامت ناطق من جهة الدلالة و العجماء معربة من جهة البرهان ولذلك قال الأول سل الأرض فقل من أجرى أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حوارا

---

[1] – الجرجاني، علي بن محمد بن علي ، **التعريفات** ، تحق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ،بيروت، ط 1، 1405هـ ، ص 223.

[2] – التهانوي، محمد بن علي، **كشاف اصطلاحات الفنون**، تصح :محمد وجيه وغلام قادر، مكتبة الخيام، د ت ط، ج2، ص 969.

[3] – الواحدي، أبو الحسن ،**أسباب النزول**،عالم الكتب ،بيروت، ط 1، ج2، ص4.

[4] – محمد حماسة عبد اللطيف، **العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم و الحديث**، مطبوعات جامعة الكويت، ط 1، 1994، ص 293.

أجابتك اعتبارا .....ومتى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وان كان صامتا وأشار إليه وان كان ساكتا»[1].

و معناها يدل على ما أشارت إليه العرب بقولها: « رب إشارة أبلغ من عبارة »[2].

9.2.مقتضى النص[3]:

هو الذي لم يدل اللفظ عليه، ولا يكون ملفوظا، ولكن يكون من ضرورة اللفظ أعم من أن يكون شرعيا أو عقليا. وقيل : هو عبارة عن جعل غير المنطوق منطوقا لتصحيح المنطوق. مثاله : قوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [النساء: 92]، وهو مقتضى شرعا لكونها مملوكة، إذ لا عتق فيما لا يملكه ابن آدم، فيزاد عليه ليكون تقدير الكلام: فتحرير رقبة مملوكة.

ولابد من الإشارة إلى أن هذه المصطلحات تعد نزرا يسيرا مقارنة بما أشار إليه العلماء – قديما و حديثا– في مؤلفاتهم .

[1] – الجاحظ ،أبي عثمان عمرو بن بحر ، **البيان و التبيين** ، تحق : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي –القاهرة –، ط5 ، 1405،ج1،ص57.

[2] – ابن جني ، المرجع السابق ،ج1،ص247.

[3] – محمود حامد عثمان ، **القاموس المبين في اصطلاحات الأصوليين** ، دار الزاحم ، ط1، 2002، ص283 – بتصرف.

المبحث الثاني: مقتضى الحال في التراث العربي والإسلامي

توطئة:

لقد كان لمقتضى الحال بالغ الأثر في تراثنا العربي ، نلحظ هذا في أحاديث النبي ﷺ وفي أخبار الصحابة ﷺ من بعده ، و نلمسه أيضا في كلام العلماء على تنوع فنونهم ، من أصوليين ومفسرين و بلاغيين ... وغيرهم .

1. مقتضى الحال في عهد النبي ﷺ و الصحابة ﷺ:

إن المتتبع لحال رسول الله ﷺ و حال الصحابة ﷺ، يجد لهم عناية ظاهرة بمعرفة أحوال المخاطبين ومن الحكمة تنزيل الناس منازلهم اللائقة بهم، ومخاطبتهم بما يناسبهم، فإن ذلك أدعى إلى قبول الدين، والرغبة في اتباعه، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

لقد كان النبي ﷺ أفصح الناس، لا غرو وهو الذي أوتي جوامع الكلم، وإليه ينسب القول : « **أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ** »[1] ،فقد كان مراعيا للحال عموما، ولأحوال المخاطَبين خصوصا، كيف لا!، وهو يتعامل مع أناس مختلفي الأحوال، من حيث الدين، ومن حيث الجنس والعمر، ومن حيث البيئة، ومن حيث الوجاهة و المنزلة، وغير ذلك من الأحوال التي– لا شك –سيكون لها أثر في تعبيره واختيار أساليبه، فهو الداعية الذي يحرص على هداية الخلق والتأثير فيهم، وذلك امتثالا لأمر الله ﷻ في محكم تنزيله : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: 125].

1.1. اختلاف الأجوبة عن أسئلة الصحابة عن أفضل الأعمال:

كان يسأل السؤال الواحد أكثر من شخص فتختلف أجوبة النبي ﷺ على حسب اختلاف أحوال السائلين ، و مثال ذلك:

---

1 – ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، دار عالم الكتب ،ط 7،1999،ج1،ص408.
تكملة الحديث : « ....، واسترضعت في بني سعد بن بكر »، ذكره السيوطي في الجامع الصغير (1 / 413) ، رقم (2696) ، بلفظ : « أنا أعربكم ، أنا من قريش ، ولساني لسان بني سعد بن بكر » ، وقال السيوطي : حديث صحيح.

حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ سُئِل :أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : «إيمان بالله ورسوله»، قيل:ثم ماذا ؟ قال : «الجهاد في سبيل الله »، قيل: ثم ماذا ؟ قال: «حج مبرور»[1].

وفي حديث ابن مسعود ﷺ قال:سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله ؟ قال: «الصلاة على وقتها»،قال :ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين»،قال:ثم أي؟قال: «الجهاد في سبيل الله»[2].

وفي حديث أبي أمامة ﷺ أنه سأل رسول الله :أي العمل أفضل؟ قال: «علَيك بالصومِ فَإنه لا عدلَ له»[3].

2.1. تركه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم عليه السلام مراعاة لحداثة إسلام أهل مكة:

كما روت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: « يا عائشةُ لولا أنَّ قَومك حديثُ عهد بجاهلية لأَمرت بالْبيت، فَهدم، فَأَدخلْت فيه ما أخرِج منه، و أَلْزقْته بالأرضِ، وجعلْت له بابينِ؛ بابا شرقيا، وبابا غَربيا، فَبلَغت به أساس إبراهيم»[4].

3.1. زيادته في الجواب لإفادة السائل غير ما سأل عنه مما يحتاج إليه:

ففي الحديث لما سُئِل: أفنتوضأ بماء البحر؟ أجاب ﷺ : «هو الطَّهور ماؤه الْحلُّ ميتته» ، لتتميم الفـــائدة وزيادة النفع للسائل أضاف زيادة «الْحلُّ ميتته»[5].

1- البخاري محمد بن إسماعيل ، **الجامع الصحيح المختصر**، تح : مصطفى البغا، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، ط3، 1407 – 1987،ج2،ص553.

2- **المرجع نفسه**،ج1،ص121.

3- المنذري عبد العظيم بن عبد القوي، **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**، تح : إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت ،ط1 ، 1417هـ،ج2،ص52.

4- النسائي ،أحمد بن شعيب ، **سنن النسائي الكبرى** ،تح : عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية – بيروت ،ط 1 ، 1991م،ج2،ص391.

5- المرجع نفسه،ج3،ص163.

ومن الأمثلة على ذلك: حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: « كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا »[1].

وقد جاء في وصايا **الصحابة** ﷺ ما يشبه كلام النبي ﷺ ، فمن ذلك قول عبد الله بن مسعود ﷺ: « حدث الناس ما حدجوك بأبصارهم وأذنوا لك بأسماعهم ، وإذا رأيت منهم فترة فأمسك »[2].

وقوله ﷺ: « إنك لا تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة »[3].

وقول عليّ ﷺ: « حدِّثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يُكذب الله، ورسوله»[4].

2. مقتضى الحال عند المفسرين :

التفسير هو العلم الذي يعرف به فهم كتاب الله تعالى، و ذلك من خلال « علم نزول الآيات، وشئونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومُحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومُطلقها ومُقيدها، ومُجملها ومُفسِّرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعِبَرها وأمثالها»[5].

لقد التفت المفسرون إلى مقتضى الحال ، وذلك أثناء كلامهم على مجموعة من القرائن المقامية المبثوثة في تفاسيرهم، أبرزها:

1 – أسباب النزول.

2 – معهود كلام العرب.

3– المكي والمدني.

---

1 – البخاري ، **المرجع السابق**،ج5،ص2355.

2– الجاحظ ،المرجع السابق،ج1،ص104.

3 – مسلم بن الحجاج ،**صحيح مسلم**، تح :محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط1 ،1374هـ ،ج1،ص10.

4 – البخاري،المرجع السابق،ج1،ص59.

5 – السيوطي، المرجع السابق،ج2،ص462.

لقد جرت عادة المفسرين في مؤلفاتهم أن يبدءوا بذكر أسباب النزول، فهي الأحداث و الوقائع الملابسة للنص القرآني ، لذلك لها أهمية كبيرة في فهم المعنى.

لذا اعتنى به المفسرون في كتبهم وأفردوا فيه التصانيف ، و قد « أخطأ من زعم أنه لا طائل تحته لجريانه مجرى التاريخ وليس كذلك بل له فوائد منها وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ومنها تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب ومنها الوقوف على المعنى »[1] ، ولهذا قال "**الواحدى**" : «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»[2]. وقال "**ابن دقيق العيد**": « بيان سبب النزول طريق قوى في فهم معاني القرآن»[3] وقال "**ابن تيمية**": «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية. فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب... و قولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة أنّه سبب النزول و يراد به تارة أنّ ذلك داخل في الآية و إن لم يكن السبب، كما تقول عُنِيَ بهذه الآية كذا »[4].

ومعرفة سبب النزول ومشاهدة وقت تنزيل الآية وما أحاط بالقرآن من الظروف والملابسات التي حفت بنزول القرآن الكريم لها أهمية ضرورية في فهم معنى الآيات ودلالتها، وعلى هذا فالرسول ﷺ و الصحابة ﷺ هم الأكثر فهماً للقرآن الكريم ،لأنّهم الأكثر إدراكاً لهذه الظروف و الملابسات و مقتضيات الأحوال التي ترافق نزول الآيات[5].

من ذلك أنه لما أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى: ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ

1- الزركشي ،بدر الدين، **البرهان في علوم القرآن**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت،1391،ج1،ص22.

2 - الزرقاني ،محمد عبد العظيم ،**مناهل العرفان في علوم القرآن** ، تح: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر ،بيروت، ط1 ، 1996،ج1،ص78.

3 - السيوطي ،المرجع السابق ،ج1،ص29.

4 - ابن تيمية، **مقدمة في التفسير**، ص 339-340.

5- ابن خلدون، **المقدمة**، تدقيق: عبد الله البستاني، مكتبة لبنان، ط 4، 1990، ص 490.

أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 188] ، وقال: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون، حتى بين له ابن عباس ﷺ أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه[1].

أما فيما ورد من كلام العرب في خطابهم و ما تواضعت عليه من معان للألفاظ يعين في الوصول إلى المعنى ، يقول" **ابن خلدون**" : « ... اعلم أنّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب و على أساليب بلاغتهم فكانوا يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته و تراكيبه... فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن»[2].

فقد كان ابن عباس ﷺ يسلك هذا المنهج، فيرجع في فهم معاني الألفاظ الغريبة التي وردت في القرآن الكريم إلى الشعر الجاهلي، وكان غيره من الصحابة يسلك هذا الطريق في فهم غريب القرآن، ويحض على الرجوع إلى الشعر العربي القديم، ليُستعان به على فهم معاني الألفاظ القرآنية الغريبة، فهذا عمر بن الخطاب ﷺ يسأل أصحابه عن معنى قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ [النحل: 47]، فيقوم له شيخ من هذيل فيقول له: هذه لغتنا، التخوُّف: التنقص، فيقول له عمر: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ فيقول له: نعم، ويروى قول الشاعر:

تَخَوَّفَ الرَّحل منها تامِكاً قَرِداً ❁ كما تَخَوَّفَ عُود النبعةِ السَّفِنُ.

فيقول عمر ﷺ لأصحابه: «عليكم بديوانكم لا تضلُّوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم»[3].

---

1 – السيوطي ،المرجع السابق ،ج1،ص31.

2 – ابن خلدون، المرجع السابق، ص 438–439.

3– الشاطبي أبو إسحاق، **الموافقات في أصول الشريعة**، تح: عبد الله دراز ، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت ،ج1،ص54.

غير أن ابن عباسﷺ، امتاز بهذه الناحية واشتهر بها أكثر من غيره، فكثيراً ما كان يُسئل عن القرآن فينشد فيه الشعر، وقد رُوى عنه الشيء الكثير من ذلك.

وأما فيما يتعلق بالمكي والمدني فقد اشتهر فيه ثلاثة أراء[1]،هي كالتالي:

الأول: أن المكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بالمدينة أم بمكة عام الفتح أم عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار ،و هو دليل على عنصر الزمان.

الثاني : أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدني ما نزل بالمدينة وعلى هذا تثبت الواسطة فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني ، و هذا دليل على عنصر المكان.

الثالث : أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة ، وهذا القول اعتمد على عنصر المخاطَب ، لذلك كان التعرف على مكي القرآن و مدنيه يساعد كثيراً في فهم الظروف و الأحوال التي كان يعالجها القرآن الكريم في كلّ من المجتمعين المكي و المدني، كما يسهم في فهم النص.

إنّ هذه الأحوال و الظروف متعددة العناصر ، غير أنّ أهم عناصرها:

1. المتكلم و ما يتصل به.
2. المتلقي و ما يتصل به.
3. العلاقة بين المتكلم و المتلقي.
4. الموقف الكلامي.
5. الظروف الخارجية.

و في تفسير القرآن الكريم نجد هذه العناصر حاضرة في عمل المفسرين، حفلت بها كتبهم و شكلت جزء من منهجهم في التعامل مع النص القرآني لفهم دلالته، و يمكن أن نعدها ضمن القرائن المعنوية التي تقابل القرائن اللّفظية المعينة على التفسير، و هي كثيرة

1 – عبد الغفار أحمد السيد، **القرآن الكريم تاريخه و لغته**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996م، ص 170–171.

و متشعبة بحيث لا يمكن الإحاطة بها، و يقول الإمام "**السيوطي**" عنها: « و أمّا القرائن المعنوية فلا تنحصر »[1].

و قد أدرك الإمام "**الشاطبي**" قيمة القرائن الحالية و أشار إليها بقوله: « معرفة مقاصد الكلام إنّما مداره معرفة مقتضيات الأحوال، حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطَب أو المخاطب أو الجميع، إذْ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، و بحسب غير ذلك»[2].

3.مقتضى الحال عند الأصوليين:

لقد سار الأصوليون على نهج علماء العربية في الكشف عن المعاني من خلال السياق، فيبدوا مفهوم السياق عندهم أكثر وضوحا و تحققا ،فقد اعتمدوا عليه في بيان المعنى في الخطاب الشرعي، ذلك أنّه: « يبيّن دلالة الألفاظ ما يؤخذ من النص و ما يفهم من غيره، و فيه ضبط دقيق لمدلولات العبارات وإشاراتها»[3]،و بذلك تكون الدلالة هي أهم ما يلتفت إليه هذا العلم.

حاول الأصوليون وضع ضوابط كثيرة لدلالة النصوص، و ميّزوا بين الدلالة التي قد تتبادر إلى الذهن من مظاهر اللفظ، و الدلالة التي أرادها صاحب النص أن تفهم من كلامه، ويحدد "**ابن القيم**" وظيفة القرائن الخارجية في إجلاء الحكم الشرعي قائلا : « فمن عرف مراد المتكلم بدليل من الأدلة وجب اتباع مراده والألفاظ لم تقصد لذواتها و إنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريق، كان عمل بمقتضاه سواء كان بإشارة أو كتابة أو بإيماءة أو دلالة عقلية أو قرينة حالية أو عادة له مطردة لا يخل بها أو ..... »[4] ، فالعبرة بالمقاصد لا بالألفاظ، وقد يعمم الكلام أو يخصص بها ،

1 – السيوطي، **المرجع السابق**، ج 2، ص 214.

2 – خالد العكك، **المرجع السابق**، ص 102.

3 – أبو زهرة محمد، **أصول الفقه**، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت ط، ص 2.

4 – ابن قيم الجوزية ، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، راجعه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، د ت ط، ج 1، ص 218.

« فاللفظ الخاص قد ينتقل إلى معنى العموم بالإرادة والعام قد ينتقل إلى الخصوص بالإرادة فإذا دعي إلى غداء فقال: (و الله لا أتغذى)، أو قيل له نم فقال: (و الله لا أنام)... فهذه ألفاظ عامة نقلت إلى معنى الخصوص، بإرادة المتكلم التي تقطع للسامع عند سماعها بأنّه لم يرد النفي العام إلى آخر العمر ،والألفاظ ليست تعبدية والعارف يقول ماذا أراد واللفظي يقول ماذا قال... »[1].

ويلح الأصوليون على فكرة المقام في الإبانة عن المقاصد ، فتصبح الأسباب و الأحوال التي يقترن بما خطاب الشارع كيفيات تتكيف بها الدلالة على الحكم عموما وخصوصا وإطلاقا وتقييدا ، لأن الدلالة تبقى ظنية حتى تأتي القرائن المرجحة للمراد منها الرافعة لما فيها من إشكال،فـ« الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين وبحسب مخاطبين وبحسب غير ذلك كالاستفهام لفظه واحد ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة وعمدتها مقتضيات الأحوال»[2].

فالقرائن غير مقصورة على اللفظ ، بل قد – تكون دلالة حال – تطبع الألفاظ بطابعها الخاص، وتخرجها من دلالة إلى دلالة فصيغة النهي والأمر تتزيا بما تكسبها به دلالة الحال، فليس شيء من ذلك — أي الدلالة الوضعية — مسلما ، وكل ذلك علم بالقرائن، فقد تكون للأمر عادة مع المأمور وعهد تقترن به أحوال وأسباب تفهم الشاهد الوجوب[3].

وهذه القرائن لا يمكن حصرها في جنس و لا ضبطها بوصف كالإيماء باللحظ و الإشارة وهيئة المتكلم ، و قد أشار إليها "**الغزالي**" بقوله : «... قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق لا تدخل تحت الحصر والتخمين يختص بدركها المشاهد

1 – المرجع نفسه،ج1، ص 218–219.

2 – الشاطبي، المرجع السابق، ج4 ،ص 146.

3 – الغزالي ،أبو حامد ، **المستصفى في علم الأصول**، المطبعة الأميرية، بولاق، 1323 هـ،ج 1،ص 268.

لها فينقلها المشاهدون من الصحابة إلى التابعين بألفاظ صريحة أو مع قرائن من ذلك الجنس أو من جنس آخر حتى توجب علما ضروريا بفهم المراد »[1].

وقد أشار "**ابن تيمية**" إلى ثلاث قرائن : حال المتكلم وحال المخاطب و حال المتكلم فيه، أي :موضوع الكلام؛ وذلك حين قال : « اعلم أن من لم يحكم دلالات اللفظ، ويعلم أن ظهور المعنى من اللفظ : تارة يكون بالوضع اللغوي أو العرفي أو الشرعي : إما في الألفاظ المفردة وإما في المركبة، وتارة بما اقترن باللفظ المفرد من التركيب الذي تتغير به دلالته في نفسه، وتارة بما اقترن به من القرائن اللفظية التي تجعله مجازًا، وتارة بما يدل عليه حال المتكلم والمخاطَب والمتكلم فيه »[2].

وأما "**الشاطبي**" فقد كان أوسع الأصوليين تعدادًا لأقسام القرائن الحالية حيث أشار إليها بقوله :« ومن ذلك معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل.....وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة أو فهم شيء منه ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال .... »[3].

4. مقتضى الحال عند النحاة:

مما لاشك فيه أن النحو العربي بني منذ بداياته الأولى على ربط اللغة بمحيطها الخارجي، ومراعاة الظروف والأحوال الملابسة للمقال.

والمطلع على تراثنا النحوي يجد أن النحاة قد أدركوا في أثناء التقعيد أن عناصر سياق الجملة قد لا تكفي لاستخلاص القواعد، لذا عول النحاة على المعنى أكثر من تعويلهم على غيره، يتجلى هذا في مقولتهم الشهيرة الإعراب فرع المعنى.

1- الغزالي ، **المرجع السابق**، ج 2، ص 41-42.

2 – ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **الفتاوى الكبرى** ، تح : حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة – بيروت، ط1 ، 1386،ج6،ص470.

3- الشاطبي، المرجع السابق، ج3 ، ص 347-351.

فمن يقرأ كتب النحاة ويرصد تحليلهم لما يطرأ على أحوال الجملة من ذكر وحذف وتقديم وتأخير وتعريف وتنكيره وأساليب الكلام المختلفة، يجد بما لا يدع للشك مجالا أن النحاة نظروا إلى النحو من خلال السياق.

تمثل جهود المرحلة الأولى مظهرا من مظاهر اهتمام اللغويين بالسياق لبيان مجرى الكلام، فاللغة عند "**سيبويه**" لم تنفك عن ملابسات استعمالها، إذ يعتمد المتكلم في كثير من الأحيان إلى حذف بعض الألفاظ ليحقق غرضا معينا في نفسه يؤدي إلى مطابقة الكلام لمقتضى الحال لكن نجاح عملية التواصل يقتضي من المخاطب معرفة المحذوف، ليتسنى له فهم الرسالة اللغوية ، يقول في ذلك: « وترك ذكر الفعل لما يرى من الحال. ومثله: بيع الملطى لا عهد ولا عقد، وذلك إن كنت في حال مساومة وحال بيع، فتدع أبايعك استغناء لما فيه من الحال »[1].

وقوله في موضع آخر: « وكذلك إن أخبرت ولم تستفهم، تقول: سيراً سيراً، عنيت نفسك أو غيرك، وذلك أنك رأيت رجلاً في حال سير أو كنت في حال سير، أو ذكر رجل يسير أو ذكرت أنت بسير، وجرى كلام يحسن بناء هذا عليه كما حسن في الاستفهام. لأنك إنما تقول: أطرباً وأسيراً، إذا رأيت ذلك من الحال أو ظننته فيه »[2].

وأما "**ابن جني**" فقد اهتم بأثر"**القرائن الحالية**" في فهم المعنى، بل عدها أقوى من النقل بالسماع دون المشاهدة، فحال المتكلم والطريقة التي ينطق بها المتكلم كلامه في باب شجاعة العربية بقوله: « اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف، والزيادة، والتقديم، والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف »[3].

وفي بيان أهمية هذه القرائن الحالية يقول : « ومن ذلك ما أقيم من الأحوال المشاهدة مقام الأفعال الناصبة، نحو قولك إذا رأيت قادماً: خير مقدم، أي قدمت خير مقدم. فنابت

1 – سيبويه، **الكتاب**، تح: محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1988، ج 1، ص 273.

2 – سبويه ، المرجع نفسه، ج1،ص

3 – ابن جني ، المرجع السابق، ج1،ص 208.

الحال المشاهدة مناب الفعل الناصب... الفعل هنا قد حذفته العرب وجعلت الحال المشاهدة دالة عليه، ونائبة عنه »[1].

ويتضح ذلك من خلال تعقيبه على بيت نعيم بن الحارث بن يزيد السعدي: « فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها وتضطر إلى معرفته من أغراضها و قصودها من استخفافها شيئا أو استثقاله وتقبله أو إنكاره والأنس به أو الاستيحاش منه والرضا به أو التعجب من قائله وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود بل الحالفة على ما في النفوس ألا ترى إلى قوله:

تقول وصكَّت وجهَها بِيمِينها ۞ أَبَعْلِيَ هذا بالرحَى المتقاعِسُ

فلو قال حاكيا عنها أبعلي هذا بالرحى المتقاعس من غير أن يذكر صكَّ الوجه لأعلمَنا بذلك أنها كانت متعجِّبة منكِرة لكنّه لمَّا حكى الحال فقال وصكَّت وجهها عُلِم بذلك قوّة إنكارها وتعاظُم الصورة لها هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غيرُ مشاهِد لها ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ولِعظم الحال في نَفْس تلك المرأة أبين وقد قيل ليس المخبَر كالمعاينِ ولو لم يَنقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله وصكّت وجهها لم نعرف به حقيقة تعاظُم الأمر لها وليست كلّ حكاية تُروَى لنا ولا كلّ خبرٍ يُنقل إلينا يُشْفع به شرحُ الأحوال التابعة له المقترنة كانت به نعم ولو نُقلت إلينا لم نُفِد بسماعها ما كنا نفيده لو حضرناها»[2].

فما حذف يدلّ عليه المقام ، لأن « الحذف لا يدخل الجملة إلا بوجود قرينة دالة تمنع حصول اللبس لذلك اشترط النحاة لصحة الحذف وجود دليل مقالي أو مقامي وان لا يكون في الحذف ضرر معنوي أو صناعي يقتضي عدم صحة التعبير في المعيار النحوي »[3].

1 – ابن جني، المرجع نفسه،ج1،ص72–76.

2 – ابن جني ،المرجع السابق ، ج1،ص245.

3 – فاضل السامرائي ،**الجملة العربية، تأليفها وأقسامها**، دار الفكر، ناشرون موزعون، عمان ، الأردن ،ط2، 2007م،1427هـ،ص83.

قال "**ابن جني**" يعلل حذف الصفة: « قولهم: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، أي سماعك به خير من رؤيته. و قد حذفت الصفة ودلت الحال عليها، و ذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سير عليه ليل، و هم يريدون: ليل طويل، و كأن هذا إنّما حذفت فيه الصفة لما دلّ من الحال على موضعها....»[1].

ويتحدثا "**ابن هشام**" عن شروط الحذف فيقول: « أحدهما وجود دليل حالي كقولك لمن رفع سوطاً (زيدا) بإضمار اضرب، و منه قوله تعلى: ﴿ قَالُوا سلامًا﴾ [الحجر: 52]، أي سلمنا سلاماً »[2].

و يورد "**ابن هشام**" الاختلاف في تقدير المحذوف، و ذلك في قوله ﷻ: ﴿ و تَرْغَبُونَ أنْ تَنْكِحُوهُنَ﴾ [النساء: 127] فقد اختلف العلماء في تقدير المحذوف ، وذلك لاختلافهم في سبب نزولها، فإن « المراد من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا ظهر المعنى بقرينة حالية أو غيرها لم يحتج إلى اللفظ المطابق، فإن أتى باللفظ المطابق جاز وكان كالتأكيد، و إن لم يؤت به فللاستغناء عنه»[3].

و جاء في كتاب "**الإنصاف**" لـ"**ابن الأنباري**": «... قد يستغنون ببعض الألفاظ عن بعض إذا كان من الملفوظ دلالة على المحذوف لعلم المخاطب، قال تعالى: ﴿**والحَافِظِينَ فُرُوجَهُم و الحَافِظَات والذَاكِرِينَ اللهَ كثيراً و الذَاكِرَات**﴾ [الأحزاب: الآية: 35]، فلم يعمل الآخر فيما عمل فيه الأول، استغناء بما ذكره من قبل، و لعلم المخاطب أنّ الثاني قد دخل في علم الأول، و قال تعالى: ﴿ **و أذَانٌ مِنَ اللهِ و رَسُولِه إلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِ أنَّ اللهَ بَرِيء مِنَ المُشْرِكِينَ و رَسُولُه**﴾ [التوبة: 03]، فاستغنى بذكر خبر الأول عن ذكر خبر

1 – ابن جني، المرجع السابق، ج 1، ص 370–371.

2 – الأنصاري بن هشام، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1411 هـ، 1991 م، ج 2، ص 672.

3 – السيوطي جلال الدين، **الأشباه و النظائر في النحو**، تح: إبراهيم محمد عبد الله، دمشق، 1407 هـ، 1986 م، ج 10، ص 572.

الثاني، لعلم المخاطب أن الثاني قد دخل في ذلك»[1]، فالمخاطب هو المستند إليه في حذف بعض أجزاء الجملة هنا.

5. مقتضى الحال عند النقاد و البلاغيين:

تعد فكرة "**المقام**" محور أعمال البلاغيين والنقاد ، و كل ذلك مرهون بقدرة المتكلم على رعاية مقتضى الحال .وعلى قدر هذه الرعاية تقاس بلاغة الخطاب والملكة البلاغية لدى المتكلم قوة أو ضعفًا؛ لأن مدار البلاغة وجوهرها هو في رعاية الكلام الفصيح لمقتضى الحال، كما جاء في تعريف البلاغة ،فقد نُقل عن" **بشر بن المعتمر**" أنه قال في صحيفته : « ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات »[2].

و قد قال "**ابن رشيق**" في سياق حديثه على ما يحتاج إليه الشاعر : « ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنا من كان؛ ليدخل إليه من بابه، ويداخله في ثيابه، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس و به تفاضلوا، وقد قيل :لكل مقام مقال»[3].

ويؤيد ذلك في موطن آخر بقوله: « الفَطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها، وينظر في أحوال المخاطبين؛ فيقصد محابهم، ويميل إلى شهواتهم وإن خالفت شهوته، ويتفقد ما يكرهون سماعه فيجتنب ذكره »[4].

---

1 – ابن الأنباري عبد الرحمن بن محمد، **الإنصاف في مسائل الخلاف**، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، د ت ، ج 1، ص 93–96.

2 – الجاحظ ،**البيان والتبيين**، تحق :عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 5، 1405هـ،ج1،ص138.

3 – ابن رشيق القيرواني، **العمدة في محاسن اشعر وآدابه**، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل ، بيروت،ط 5، 1401 هـ .ج 1،ص199.

4 – المرجع نفسه،ج1،ص223.

وقد أوصى"**ابن قتيبة**" جمهور للكّتاب بوجوب مراعاة مقتضى الحال عند ممارسة الصنعة ، وذلك في الألفاظ والمعاني على حد السواء فيقول:« ونستحب له أن ينزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، وأن لا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس وضيع الكلام »[1].

و يؤكد "**العسكري**" على ضرورة مراعاة حال المخاطبين و ظروف الخطاب إذ يقول في كتابه "**الصناعتين**": « وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطَب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب »[2].

و قد استشهد لهذا بما ورد عن النبي ﷺ أنّه: « لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس كتب إليهم بما يمكن ترجمته... فسهل الألفاظ كما ترى غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة في العربية، و لمّا أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فخّم اللفظ، لمِا عرف من فضل قوتهم على فهمه و عادتهم بسماع مثله»[3].

و الأمر لا يختلف عند " **قدامة بن جعفر**" فعند حديثه عن مدح السوقة و ذوي الصناعات يقول : « أمّا مدح ذوي الصناعات، فإن يمدح الوزير و الكاتب بما يليق بالفكرة و الروية، و حسن التنفيذ والسياسة... و أمّا مدح السوقة من البادية و الحاضرة فينقسم بحسب انقسام السوقة إلى المتعيشين بأصناف الحرف وضروب المكاسب، و إلى الصعاليك و الخراب و المتلصصة، و من جرى مجراهم»[4].

---

1 – ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم ، **أدب الكاتب**، تح : محمد محيى الدين عبد الحميد ،المكتبة التجارية، مصر،ط4، 1963م،ص 14.

2 – أبو هلال العسكري، **كتاب الصناعتين**، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة،ط1، 1371هـ،ص 29.

3 – أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** ،تح : د.يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق ،ط1،1987م،ج6،ص284.

4 – ابن جعفر قدامة، **نقد الشعر**، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1979 م، ص 85– 87.

وخلاصة القول أن النقاد تناولوا مفهوم المقام، وتحدثوا فيما نُقل عنهم على مقام الخاصة والبدو، ومقام العامة و السوقة و الأعاجم، ثم بسطوا الكلام في عناصر المقام لكل موقف وضربوا لذلك الأمثلة الكثيرة.

وقد أكد البلاغيون ما قرره النقاد في مصنفاتهم ، فقد دعا "**الجاحظ**" إلى مطابقة الكلام لمقتضى الحال وكرر ذلك في كتبه ، فقال: « لكلّ ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكلّ نوع من المعاني، نوع من اللفظ ،ومدارُ الأمر على إفهام كلِّ قومٍ بمقدارِ طاقتهم، والحملِ عليهم على أَقدار منازلهم، وأن تُواتِيَهَ آلاتُه، وتتصرّفَ معه أداتُه»[1].

و أكد "**الجاحظ**" على ذلك بقوله: « ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا وتلك الحال له وفقا ... ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم و الحمل على أقدار منازلهم »[2].

وذكر " **السكاكي**" في مفتاحه: أن « ارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه :مقتضى الحال»[3].

وقد تناول مبدأ مطابقة الكلام لمقتضى الحال من زاوية اختلاف مقامات الكلام عن بعضها فيقول: « لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة التشكر يباين مقام الشكاية ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ومقام المدح يباين مقام الذم ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار جميع ذلك معلوم لكل لبيب »[4].

---

1 – الجاحظ،المرجع السابق،ج1،ص93.

2 – الجاحظ، المرجع السابق،ج1،ص93.

3 – السكاكي، **مفتاح العلوم**، تح: نعيم زرزورة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1407 هـ، 1987 م، ص168.

4 – المرجع نفسه،ص168.

وفي بيانه لمقامات المخاطَبين يقول : « مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر»[1].

وهذا ينم على إدراك "**السكاكي**" لتصرفات السياق وأثره في اختيار أساليب التعبير بحسب مراعاة أحوال المتلقين لها ، والبيئة الثقافية المنتمين إليها.

وهكذا تجمع الألفاظ والمعاني إلى بعضها في مقام دون آخر، و قد لا يسوغ لنا الجمع بينها إذا تغير المقام، و هو ما عناه "**السكاكي**" بقوله: « ثمّ إذا شرعت في الكلام، فلكلّ كلمة مع صاحبتها مقام»[2].

وتناول البلاغيون في حديثهم عن أغراض الخبر عن رعاية حال المخاطب ،كما قال " **عبد القاهر الجرجاني**": « إذا كان الخبر بأمر ليس للمخاطب ظن في خلافه البتة، ولا يكون قد عقد في نفسه أن الذي تزعم أنه كائن غير كائن، وأن الذي تزعم أنه لم يكن كائن فأنت لا تحتاج هناك إلى(إنَّ)، وإنما تحتاج إليها إذا كان له ظن في الخلاف، وعقد قلب على نفي ما تثبت، أو إثبات ما تنفي»[3].

ويشير في موضع آخر إلى أسلوب القصر بـ(إنما) بقوله: « اعلم أن موضوع (إنما) على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة »[4].

لقد كانت قضية المقام عاملاً هاماً في تبيان أوجه الإعجاز البلاغي و الأسلوبي؛ حيث « إنّ إدراك الأسرار البلاغية لا يكون إلاّ بعد تحديد المقام الذي نزلت فيه الآيات، ليتسنى بعد ذلك الوقوف على ملائمة الآيات لما استلزمه المقام»[5].

---

1 – المرجع نفسه،ص168.

2 – السكاكي، المرجع السابق ، ص 170.

3 – الجرجاني عبد القاهر، **دلائل الإعجاز**، تح: محمد محمود شاكر، مكتبة الجانجي، القاهرة، ط 2، 1410 هـ، 1989 م،ص325.

4 – المرجع نفسه ،ص330.

5– فتحي فريد، **المدخل إلى دراسة البلاغة**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1978 م،ص 107.

المبحث الثالث: مقتضى الحال في الدراسات اللغوية الحديثة.

لقد استبعد دو سوسير سياق الموقف، فلم يهتم بالظواهر الاجتماعية المحيطة باللغة، واكتفى بدراسة نظام اللغة الداخلي، فهو ينطلق من منهجه في دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها.

إن نشأة فكرة مقتضى الحال أو سياق الحال كان على يد "**مالينوفسكي**" ، ثم تطور فاستوى كنظرية متكاملة الجوانب كان على يد "**فيرث**" رائد المدرسة السياقية الانكليزية ، وكان المعنى هو الموجه الأساس في ظهور هذه النظرية إلى الوجود.

1. مقتضى الحال عند بلومفيلد و مالينوفسكي:

لقد كانت البدايات الأولى لنشأة فكرة المقام عند "**بلومفيلد**" رائد المدرسة السلوكية إحدى اكبر المدارس اللغوية الوظيفية، التي ترتكز على الجانب النفسي والمادي، وبالغت "**السلوكية**" بالاعتداد بـ"**مقتضى الحال**" لتفسير الوحدات اللغوية و الدلالة.

وارتبطت السلوكية بـ"**بلومفيلد**" الذي أكد بالدليل أنّ الموقف قابل للتعريف بحدود تجريبية أو فيزيائية ، فـ « الموقف الذي ينطق فيه المتكلم بالمعنى، و الاستجابة التي يحدثها المعنى في السامع»[1].

لقد بحث "**بلومفيلد**" المعنى في محيط السلوك البشري ،ويتضح ذلك من تعريفه للمعنى بأنه: « الموقف الذي يتم فيه الحدث اللغوي المعين، والاستجابة به، أو رد الفعل الذي يستدعيه هذا الحدث في نفس السامع »[2]، فالمعنى عند بلومفيلد مكون من المثير أو الموقف الذي يقوم فيه المتكلم بإلقاء حديثه، و رد الفعل أو الاستجابة التي يتطلبها ذلك من المستمع ، و يدخل في حسبانه بعض العناصر غير اللغوية المتصلة بالكلام التي يعدها

1 – بالمر ،**علم الدلالة**، تر: صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995م ، ص 81.

2 – أسعد خلف العوادي،**سياق الحال في كتاب سيبويه**،دار الحامد للنشر و التوزيع ،بيروت،ط1، 2011م،ص39.

عنصرا لازما لإدراك معنى الكلام وهو بذلك لا يتجاهل شخصية المتكلم وشخصية السامع و الظروف المحيطة بالكلام.

إنّ التحليل السلوكي الذي جاء به "**بلومفيلد**" للحدث اللساني، يستند على قصة جاك و جيل وخلاصتها كما سيأتي:

(جاك) و (جيل) سائران في الطريق، ترى (جيل) تفاحة على الشجرة، فتسأل (جاك) أن يحضرها لها، يتسلق (جاك) الشجرة، و يعطيها التفاحة، تأكل (جيل) التفاحة.

فـ« جوع (جيل) ورؤيتها التفاحة يشكلان المثير (م) و بدلاً من استجابتها المباشرة (س) بتسلقها الشجرة، عملت استجابة بديلة (سَ) في شكل منطوق معين، و هو المثير البديل»[1].

و لقد تعرضت النظرة السلوكية التي جاء بها "**بلومفيلد**" ، إلى جملة من انتقادات أهمها:

1. كثير من الكلمات كالحب و الكراهية لا يمكن تمثيلها على أساس فيزيائي.
2. قامت هذه النظرية على أساس تجارب "**بافلوف**" التي أجريت على الكلاب لتعلم السلوك ، ثمّ نقلت نتائجها إلى استعمال اللغة عند الإنسان... « و هذه من أكبر الأخطاء، إذ أنّ ما ينطبق على الحيوان قد لا ينطبق على الإنسان»[2]

وأما "**مالينوفسكي**" فيعد أول من استخدم مصطلح "سياق الحال" ، وكانت كثير من مقولاته تنبئ بجملة من المبادئ التي لها بالغ الأثر في الفكر اللغوي الحديث، فقد ذهب إلى أن اللغة جزء من النشاط الاجتماعي ، وليست مجرد أداة للتواصل و أن أي كلمة عزلت عن سياقها الذي تستخدم فيه تصبح كلمة جوفاء.

هذه النتيجة التي توصل إليها "**مالينوفسكي**" ، جاءت حينما واجه مشاكل في ترجمة اللغات القديمة، و وجد أنّ من الضروري وضع الكلمات في السياق داخل العبارة الكاملة في موقفها، فقد « حاول ترجمة كلمات مستقلة أو منعزلة من إحدى اللغات البدائية

1 – **أحمد مختار عمر**، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، 1992 م، ص 62.

2 – المرجع نفسه، ص 62 – 63.

المحدودة الانتشار إلى الانجليزية ، فوجد أنه عاجز عن الوصول إلى أية ترجمة للنصوص التي سجلها »[1].

لقد تطور مصطلح "**سياق الحال**" بعد "**مالينوفسكي**" ليصبح نظرية متكاملة على يد رائد مدرسة لندن السياقية "**فيرث**"، الذي كان متأثرا بـ"مالينوفسكي" في سياق الحال.

2.مقتضى الحال عند فيرث:

تعد المدرسة الإنجليزية مدرسة قائمة بذاتها تختلف تماماً عن النزعات و المدارس التي انبثقت أو تأثرت بصفة مباشرة بأفكار "**دي سوسير**".

فقد اقتفى رائدها "**فيرث**" أثر "**مالينوفسكي**" ، وطور نظريته ، ورفض المناهج البعيدة عن الواقع اللغوي في دراسة اللغة . وتتمثل نظريته في دراسة المعنى من خلال السياق بعناصره اللغوية والاجتماعية ، إذ « المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية ، أي : وضعها في سياقات مختلفة »[2].

وهكذا ارتبط مصطلح سياق الحال بعالمين اثنين هما "**مالينوفسكي**" و "**فيرث**"، حيث كان كلاهما معنياً بإبراز المعنى بالنظر إلى السياق الذي تستخدم فيه اللغة، و قد أدت دراستهما إلى نظرات قيمة في اللغة، فيما يتعلق بدراسة الكلام الحي بوجه خاص، و توصلا إلى أنّ اللغة ليست كما يرى التعريف التقليدي وسيلة من وسائل توصيل الأفكار أو الانفعالات أو التعبير عنها، أو نقلها، فمثل هذا لا يعدو أن يكون وظيفة واحدة من وظائف اللغة، و لكن اللغة كما يمارسها المتكلمون هي نوع من السلوك و ضرب من العمل، يؤدي وظائف كثيرة غير التوصيل[3].

1 – بالمر،المرجع السابق،ص74.

2 – فرانك بالمر ، المرجع السابق ، ص61.

3 – محمود السعران، المرجع السابق ، ص 310.

و في خضم حديثه عن السياق ، يذكر "**فيرث**" بأنّ: « المعنى الكامل لكلمة هو دائماً مرتبط بالسياق، و لا يمكن أن تؤخذ أي دراسة بعين الاعتبار إذا لم يهتم بهذا الجانب؛ أي السياق»[1].

فالمعنى مكون من حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في مجتمعه ، « فالجمل تكتسب دلالتها في النهاية من خلال ملابسات الأحداث ، أي من خلال سياق الحال» [2].

واعتبر "**فيرث**" في نظريته أن المعنى مركب من الوظائف اللغوية : « الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية وسياق الحال الشامل لكل ما يتصل بالمتكلم والمخاطب والظروف الملابسة والبيئة . ومن ذلك الصمت والضحك والإشارة »[3].

و منه يقسم "**فيرث**" السياق إلى نوعين:

أ. السياق اللّغوي:

و يتمثل في العلاقات الصوتية و الفونولوجية و المرفولوجية و النحوية و الدلالية.

ب . سياق الحال:

و يمثله العالم الخارج عن اللغة، بما له صلة بالحديث اللغوي، و يتمثل في الظروف الاجتماعية والبيئة النفسية و الثقافية للمتكلمين أو المشتركين في الكلام[4].

فإذا كان السياق اللغوي هو مجموع العناصر اللغوية ، فإنّ السياق غير اللغوي أو المقام، هو المسرح اللغوي أو الظروف الكلامية التي تتصل بكل من المخاطِب والمُخَاطَب و ظروف الخطاب المختلفة.

---

1 –Firth, **papers in linguistics**, p 15.

2 – المرجع نفسه ،ص34.

3– كمال بشر ، **دراسات في علم اللغة** ، دار غريب ، القاهرة ، ط 4 ، 2006،ج2،ص175.

4 – حلمي خليل، **العربية و علم اللغة البنيوي**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996 م، ص 135.

يفصل "**فيرث**" في حديثه عن العناصر المكونة لسياق الحال بقوله : « إنّ سياق الحال يقودنا إلى الحديث عن العناصر الآتية:

أ- الأشخاص و الشخصيات التي لها علاقة بالموضوع (أفعال الأشخاص المترجمة بالأقوال، الأفعال غير المترجمة بالأقوال).

ب- الأشياء التي لها علاقة بالموضوع.

ت- تأثير الأفعال المصحوبة بالأقوال»[1].

هذه العناصر المقامية التي تشكل في مجموعها الخلفية الاجتماعية للموقف، أو عناصر المقام عند "**فيرث**".

و خلاصة كلام "**فيرث**" أنّ على الإنسان أن يتكيف مع مواقف عديدة ، تفرض عليه القيام بأدوار مختلفة تتكيف أيضا مع أوضاع لغوي مختلفة ، فالطريقة التي يتخاطب بها رجل مع أبنائه مثلاً تختلف عن طريقته في مخاطبته مع زملائه و هكذا... و هذا هو عين ما أشار إليه البلغاء قديما ،فلكل مقام مقال.

وبعد الإشارة إلى مقتضى الحال عند رائد المدرسة السياقية لابد من الإشارة إلى كل من هاليداي و أولمان و غيرهم ممن اكتملت معالم النظرية السياقية على أيديهم.

3.مقتضى الحال عند هاليداي و لاينز و أولمان:

لقد اهتم "**هاليداي**" بمقتضى الحال بعد "**فيرث**" ، وهو أحد تلامذته فقد نظر "**هاليداي**" إلى السياق نظرة موضوعية ، فيقول: « من المهم أن نقيد فكرة السياق وذلك بأن نضيف لها كلمة ذات صلة لان سياق الحال لا يعني كل شيء في المحيط المادي.... انه يعني تلك الملامح التي لها صلة وثيقة بالكلام الحاصل»[2].

1 – Firth, **papers in linguistic**, oxford university, press new york, toronto 1957, p 30.

2- أسعد خلف العوادي،المرجع السابق،ص43.

ويقدم "**هاليداي**" الموقف بشكل مختلف نوعا ما عما كان يقدمه فرث، ذلك أنه يرى السياق يتكون من مظاهر ثلاثة هي: المجال ونوع الخطاب والمشتركون في الخطاب[1].

و يرى "**هاليداي**" أن السياق : « هو النص الآخر ، أو النص المصاحب للنص الظاهر ، و هو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية »[2].

و نجد عناصر السياق عند هاليداي تتمثل في الآتي[3] :

1 – موضوع الحدث الأساسي.

2– الوسيلة اللغوية نطقا أو كتابة.

3 – نوع النص من حيث كونه سرديا.... (النوع الأدبي مثلا) .

4 – أسلوب النص (نوع الكلام نحويا)الأمر – الاستفهام – الرجاء – ، و(نوع الكلام اجتماعيا) من حيث الرسمية و عدمها.

5 – المتكلم.

6 – المخاطب (السامع).

7 – المشاركون في الحدث اللغوي من حيث المستوى الاجتماعي و الثقافي ، و علاقة كل منهم بالمتكلم أو السامع ، أو بالحدث في إجماله.

8 – الغاية التي يساق لها النص (الغرض) كالإخبار، والوصف ،. .. الخ.

9 – الأشياء المحيطة بالحدث (المكان و الزمان).

---

1 – يوسف نور عوض ، **علم النص و نظرية الترجمة**، دار الثقة للنشروالتوزيع ، ط 01 ، مكة المكرمة ، 1410 هـ،ص33،34.

2 – المرجع نفسه ،ص29.

3 – ردة الله بن ردة الطلحي ، **دلالة السياق**، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ، ط 01 ، 1423 هـ،ص569،570.

وخلاصة سياق الموقف عند "**هاليداي**" أنه النص الآخر أو النص المصاحب للنص الظاهرة و النص الآخر لا يشترط أن يكون قوليا، إذ هو يمثل البيئة الخارجية للبيئة اللغوية بأسرها، وهو بمنزلة الجسر الذي يربط السند اللغوي ببيئته الخارجية[1].

وكان من المهتمين بمقتضى الحال أيضا " **جون لاينز**" فقد نص على ضرورة مراعاة كل من المتكلم والمخاطب و العلاقة بينهما والأشياء الخارجية ذات الصلة بالحدث الكلامي ، ولا يمكن للسامع أن يفهم المتكلم ما لم تكن لديه معرفة سابقة بملابسات الحديث، ولا يمكن فهم أي نص تفوه به بمعزل عن محيطه الخارجي ومواقف الحديث المرتبطة بالعلاقة التواصلية بين عناصر الخطاب[2].

و أشار " **استيفن أولمان**" إلى ضرورة مراعاة كل ما يسهم في التوصل إلى المعنى عن طريق السياق الحالي الذي « يشمل بوجه من الوجوه كل ما يتصل بالكلمة من الظروف والملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة »[3].

ويقرر ما سبق بقوله:« فليس المعنى ارتباطات عقلية مستترة، بل هو مجموعة ارتباطات .وخصائص ومميزات لغوية تعرف من الموقف الكلامي»[4].

وكذلك فإن مفهوم السياق عند أولمان لا يقتصر على الكلمات والجمل الحقيقية فحسب بل يشمل أيضا القطعة كلها ، والكتاب كله ، كما يشمل بوجه من الوجوه كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات ، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه ،

1 – يوسف نور عوض ،المرجع السابق،ص29.

2 – جون ليونز، **اللغة و المعنى و السياق**، تر: عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987،ص27.

3 – ستيفن أولمان ، **دور الكلمة في اللغة** ، تر : كمال بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ،1988م،ص 68.

4 – أحمد مختار، المرجع السابق ،ص 72.

ويرى أن نظرية السياق قد قادت إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في علم المعنى إذ يؤدي السياق دورا بارزا في جلاء المعنى[1].

4. مقتضى الحال في الدراسات العربية الحديثة:

وأما اللغويون المحدثون العرب ، فقد تولد اهتمامهم بدراسة السياق بتأثير واضح من نظرية فيرث ،لأنهم تلقوا هذا العلم على يدي صاحب النظرية بشكل مباشر ، و من أشهرهم تلميذه تمام حسان.

لقد احتفى تمام حسان بالنظرية السياق، وعالج مجمل قضاياها في كتابيه "**في مناهج البحث في اللغة**" ، ثم في كتابه "**اللغة العربية معناها ومبناها**" ، ثم طبق نتائج أفكاره في كتابه الأخير "**البيان في روائع القرآن**".

فقد عرض "**تمام حسان**" لنظرية فيرث في كتابه "**مناهج البحث في اللغة**" ، وجوهرها الذي تقوم عليه هو "**مقتضى الحال**" الذي أطلق عليه اسم "**الماجريات**" ، ويذهب "**تمام حسان**" إلى أن فيرث يستعمل هذا الاصطلاح « باعتباره دالا على موقف كامل كالمتكلم والسامع أو السامعين ، وكل ما يحدث في أثناء الكلام من انفعالات ، واستجابات ، ومسالك ، وكل ما يتصل بالموقف ويؤثر فيه من قريب أو بعيد»[2].

ويقصد "**تمام حسان**" بالماجريات كل الملابسات المادية والاجتماعية المحيطة بنطق المنطوق ويدخل فيها المتكلم والسامعون ، ويقصد بنوع المناسبة ، ما إذا كان الموقف موقف تعاون على عمل ما ، أو موقف زجر ، أو مدح أو ذم أو تحريض[3].

1 – ستيفن أولمان ، **المرجع السابق**،ص 55.

2 – تمام حسان ، مناهج البحث في اللغة ، ص285.

3 – ردة الله الطلحي ،المرجع السابق ،ص588.

وهذه "**الماجريات**" مركبة بحيث يجد فيها كل عالم ما جراه التي يجري فيها مهامه العلمية ، كالأصواتي والنحوي والعجمي .... يجدون في النص ماجرياتهم ، ثم يجد علماء الاجتماع ماجراهم في الظروف الثقافية العامة[1].

و يورد –رحمه الله – عدة تصنيفات للماجريات ، هي:

1. تصنيف يعتمد على (أنواع الاستعمال) ، ومثاله تصنيف معجم أوكفورد للأبواب الاجتماعية لاستعمالات الكلمات نحو : عامي، وسوقي، و طارئ ، وفني، وعلمي ، وتخاطبي، ولهجي.....[2]

2. تصنيف الأدوار الاجتماعية التي يستعمل فيها الكلام على وجه من التخصص الاستعمالي اللغوي المناسب لذلك ، وذلك كالأدوار الاجتماعية التي نجدها في المجتمع .... ، والطبقة الاجتماعية ، والعائلة ، والعمل ، والعبادة .....[3].

3. تصنيف المواقف العامة ، مثل الخطاب (النداء) ، والتحية ، والمواقف الإلزامية..[4].

4. وأخيرا يطرح تمام حسان أنواع الوظائف اللغوية بوصف تقسيمها أسهل من تقسيم المواقف الاجتماعية ، ومن أنواع الوظائف التي ذكرها : الاتفاق ، و التشجيع ، والمصادقة ، الاختلاف ، والتثبيط ، والشتم ، والتمني ، والدعاء ، والطعن ، .....، ولغة الغزل، والمدح، واللوم، والدعاية، والإغراء[5].

أما في كتابه " **اللغة العربية معناها ومبناها**" فقد تخلى عن مصطلح "**الماجريات**" كمقابل مصطلح (context of situation)، وعول على التراث كثيرا، وبخاصة في تأصيل فكرة(سياق الموقف) في التراث العربي، معتمدا على البلاغيين في ذلك، واتكأ في التأصيل

1 – المرجع نفسه ، ص584.

2 – تمام حسان ، مناهج البحث في اللغة ، المرجع السابق ص296.

3 – المرجع نفسه، ص297.

4 – المرجع نفسه، ص300،301.

5 – المرجع نفسه، ص302.

لمفهوم الموقف على عبارتين وردت عند البلاغيين وهما : (لكل مقام مقال) أو عبارة (لكل كلمة مع صاحبتها مقام) [1].

هذه الجوانب التي ذكرها "**تمام حسان**" قد أشار إليها البلاغيون و تناثرت في آثارهم وكانت تبحث عمن يواصل عملهم و يتمم ما لم يتم، و لكن ذلك لم يتحقق إلاّ على أيدي علماء الغرب و قد اعترف "**تمام حسان**" بذلك حين قال: «... أجد لفظ المقام أصلح ما أعبر به عمّا أفهمه من المصطلح الحديث "**سياق الحال**" (**context of situation**) الذي يستعمله اللّسانيون المحدثون»[2].

و يقرر ما سبق بقوله: « و حين قال البلاغيون لكلّ مقام مقال، و لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام، وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كلّ اللغات لا في العربية الفصحى فقط، و تصلحان للتطبيق في إطار كلّ الثقافات على السواء...»[3].

فالمقام عند "**تمام حسان**" له ديناميكية لم ينسبها إليه البلاغيون فهو ليس إطاراً و لا قالباً، وإنّما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءً منه، كما يعتبر السامع و الكلام نفسه وغير ذلك ممّا له صلة بالمتكلم و كلّ جوانب الاتصال من الإنسان و المجتمع و التاريخ و الجغرافيا و الغايات و المقاصد[4].

و خلاصة الكلام، أن فكرة السياق عند "**تمام حسان**" إن أطلق عاما أو عبر عنه بقرائن الأحوال أو المقام أو الموقف فإن له المفهوم نفسه ، وإن كان يمس مصطلح الموقف بتغيير بسيط.

---

1 – تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، المرجع السابق،ص337.

2 – اللغة العربية معناها ومبناها ،المرجع نفسه، ص 339.

3 – تمام حسان، المرجع نفسه، ص 372.

4 – تمام حسان، **الأصول**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982 م، ص 338 – 339.